موت سريري

نجود حسين – سوريا

الغرفة معتمة ..محتوياتها أعرفها أكثر مما كنت أتخيل .. ربما .. بل أستطيع أن أجزم أنها ما زالت في أماكنها منذ ذلك اليوم .

ثمة لا رائحة في هذا المكان الذي كان يعبق في تواريخ مشابهة و لأعوام خلت

قبل أن أطرق الباب لأدخل .. أحسست باختلاج ما .. نظرت خلفي ..؟ لا أحد !

لقد حُمِّلت .. أسئلة و استفهامات و حيرة .... و استغراب .. و كأن ما أذهب إليه استكشافاً لعالم مجهول. إني أخسرها.

كان صوت الوالدة مرتجفاً ..مترجياً طمأنة مستبعدة .

السكون الذي يغلف كل شيء داخل تلك الغرفة – التي طالما زلزلتها ضحكاتنا .. ثرثراتنا .. حكايانا .. نكاتنا .. أفراحنا الصغيرة .. أحزاننا الطارئة ... – كان شبيهاً بصدمة الهواء المعلق في مقابر الفراعنة .

بعض من وقت مر حتى استعدت تضاريس المكان ذي الستائر السميكة المسدلة ، فالنور يصر على النفاذ من ثقوب غير محسوبة.

كانت تتكور هناك ... في عمق الأريكة و في الزاوية القصوى .. و تلك عادتها حين تزخم أعماقها باصطدام التناقضات .

هي التي كانت تحب اللهو على سريرها الواسع ، قافزة فوق ملاءاته .. تتدحرج عليها .. تلتف بها .. ثم تفردها على ذراعيها و تطير بها كأجنحة مفترضة فوق المكتب و الطاولة .. لتغط كعصفور على سجادة غرفتها الحمراء .

تلك كانت فوضى الحياة .

جلستُ على حافة السرير المرتب جداً .. و منذ وقت أطول مما يجب . و سريعاً تلقفت عدوى السكون ... فانزلقت إلى جانب السرير و آويت إليها .

إن ما أعرفه لم يكن يستدعي كل تلك القتامة ، لكن ما أدرك أنها تحسه .. يوجب هذا الظلام ..

كنت أدرك أن حضوري .. خلخل صمتها المتعب .. فبدأت الأنفاس المتحشرجة تُعَبر عن نفسها ... الحلق يغص.. الصدر يتقلص.. انقباضة قلب ..

ووصلت كل الأشياء حد الامتلاء .. و انبثق النشيج .....

من ذا ... ؟؟؟؟؟؟ سيعرف كيف انسل كل ذاك الحزن إلي !

من الذي سترتاده كل القشعريرة التي اعترتني .. و أنا أسمع اختناق أنفاسها !

ومن ستأخذ به لجلجة مشاعر ذال الفراغ المظلم فيها ، حد رمي الحياة كلها إلى حيث لا يتعثر بها أحد ! من الذي سيوجعه كل هذا الأسى !

شيء ما .. بل كل الأشياء .. كانت تحث بي إلى النحيب .

بذلت جهداً كنت أحتاجه لأستميحها ببعض الضوء يساعدني على الرؤية – لكنها لم تحتجه – ثم حافة لهاوية التعب .. كانت تقف عليها ..

الانهاك .. منعها من الرفض، لحظة وصوله كان نصل الشعاع حاداً ..

الشهقة كادت تخرج من شفاهي الفاغرة .. ابتلعتها مع غصة حنق .. و بقي نظري معلقاً على وجهها.

هي بضعة أشهر .. أفعلت كل هذا ؟!

كان الصوت يخرج من مومیائها : ما مضى ليس زمناً !!!

و غصت الأنفاس ، تعالى النحيب ، و تجلل كل المكان بظل الموت .

ثمَّ فجائعية في حزن لا تدركها ، لكنها توغل فيك لحظتها ، لتجعل منك أهلاً لذاك الراحل ، فتنخرط في الدمع عنوة ، و لا تجسر على تخطيه حتى تنهي طقوسه .

كانت الآهات كثيرة .. و الهاءات في آخر الأنفاس لا تحصى، وتعود أغزر وأعمق وأعنف .. كلما لمّت تلك الصور الثلاث وعادت إلى فردها مجدداً .. علَّ قدراً ما يغير ما فيها . فتنهي احتفاليتها / المأساة.

ولكن عبثاً.

لا أعرف كم عمراً نبذل كي نتعرف طريق الحب .. لكنّا نكون قد أضعناها جميعاً .. في الحزن ...!!!

أخيراً .. فهمتُ .

و تركتها تستهلك كل مخزون القهر الذي راكمته طويلاً ، كي تمتلك جرأة الكراهية، ستنفلت عقدة لسانها قريباً .. و ستفرغ الصمت الطويل. وبعدها.. .....

هدأت أخيراً . إنما إغفاءتها لم توقف أعراض النحيب ، و مازال الهواء يخرج من صدرها آهاً و هاءً..

ظلام الليل خارجاً لم يكن أقتم من ليل بلا فصول يمتد فيها.

كان ذلك جلياً بعدما تمعنتُ بتلك الصور الثلاث التي تضعها أمامها والمترافقة بتواريخ مدونة من الخلف.

منذ ثلاث شتاءات ..

أذكر يومها أن ظهيرة ذلك الصيف كانت أحر من عاداتها ....

أيقظني من النوم رنين الهاتف المتواصل و تلك كانت طريقتها في الاستدعاء العاجل، جرجرت غفوتي معي إلى النافذة .. كانت تقف مواجهتي على الرصيف ، تلوح بيدها .. و بالأخرى باقة زهر ..

هنا في هذه الغرفة كانت الصداقة تضاعف الفرح .. فهل لها أن تقلص الحزن .... الآن ؟؟؟

ها هي صورة تلك الباقة ...

الآن ..... كأني أسمعها تتحدث، حين دخلت وقتها ، كانت تقفز فوق السرير.

سحبتني من يدي لنمارس إيقاع المشاعر ليوم بدا مختلفاً مع باقة ورد بنفسجي تتوسطها وردة شامية حمراء.. و يغلفها معطف كحلي .

أخيراً ..... استقرت مستلقية على السرير ، تصرخ بسعادة : واااااااااااو...

باقة الورد تلك إتَلَقَت هناك على رف مكتبتها في إنائها الأبدي، أترينها ... كل شيء فيها كان يحتفي بتلك الورود ، كأنها لم تمنح غيرها من قبل، لم أكن أنتظر ... لم أكن أتوقع ... عند الثانية و النصف ظهراً وقف بباب مكتبي و يداه تقبضان عليها.

ذلك الذي ما كان ممكناً أن يجيء .. أتى !! أترين تلك الحمرة في قلب البنفسج .. الفرح النابت في أعماق الهم. إني أحس الشمس تشرق مني ..

تَرَفٌ ذلك اليتم الذي أنهاه احتضانه، الحزن ممتع قبل ابتسامته، أجمل ليل هو الذي يستمر في عينيه، فما نفع دمعة لم تسقط في كفه..!

فلربما كانت وحدتي درب الوصول إليه.

وتنظر في سقف الغرفة .. تتحدث و تبتسم ... و حين سكتت .. خطَّت دمعتان صدغيها بهدوء، غفت آنها .. كما الآن .. فتركتها تمارس حلماً ..

(أن فرحاً خارقاً .. هلَّ) . و للحبيسة فيها سينبت جناحان .. للتحليق .

قبل شتاءين من الآن ...

كان هاتفي يواصل رنينه عند الثانية و النصف صباحاً، لم أتوقع أن تقف أيضاً في هذا التوقيت تحت نافذتي ، إنما كانت كذلك.

كذلك كانت الدهشة أنها تفعل شيئاً مجنوناً بلا اعتياد ، إنما في زمنها هذا / زمنه .. كل شيء ممكن، هذه المرة كانت باقة الورد حمراء ... حمراء... حمراء .

الليل لم يكن ليلاً عندها.. الوقت ليس زمن الساعة، و الذي يحدث هو ابتكار جديد للتأريخ و الفصول و الحياة و يبدأ من خط "هو".

مرة أخرى .. يرقص العالم خارجها على إيقاعاتٍ منحها إياها في لحظة خرجت عن الزمن ومن وراء المعقول و المحتمل.

أتعرفين ؟؟ . كان كل شيء فيها يغري بالمعرفة .

أخرجها من وراء مقعد السيارة . وقال كنت أخبئها حتى نصل .

لم يقوَ على انتظار الوصول .. يده اليسرى على مقود السيارة .. اليمنى تمسك باقة الورد، يداي تطوقان عنقه . ليست قُبلة تلك التي لونت بها خده .. كانت صلاة، مرة أخرى ... صمتت .. و ثانية خطت تلك الدمعتين صدغيها.

الشتاء الأخير مر .. ولم يكن كسابقه ... يبدو..

الصورة الثالثة كانت لباقة ورد تتضمن كثيراً من الأنواع و الألوان ، تماثل ما غُلفت به، ليس لها نكهة .. بلا هوية .. خالية من الانتماء .. إنها تشبه حقولاً ممتدة لربيع غير محسوم .

على رف المكتبة، كانت الباقات الثلاث في آنيتها ، فقدت رونق الألوان .. تغلغل العطر في الزمن .. و غاب كل ما يوحي باختلافها .. تباين ألوان ترابية على الأزهار الجافة .

ما زالت تقبع هناك .. في الزاوية القصوى، و في البعد الأقصى مني .. ينمو حقد .. على لا أحد، تختلج أنفاسها، وأتقصى الوجع الذي تحاول التمرد عليه ..

تتقلقل النظرة في عينيها .. ترى ؟؟؟ أي جنازة تشيّع الآن !!

في الشتاء الذي يلي .... ستستقبلني على باب أهرامها ، الغرفة الجديدة مرتبة جداً، الستائر شفافة .. السرير صغير .. اختفت الأريكة .. حل مكانها كرسيان خشبيان .. السجادة تمتد كأرض محروقة ..

ما بقي من المكتبة ثلاثة آنية بورودها العتيقة .. تعلوها على الجدار صور الباقات تلك في صباها. هي .. وحدها كانت تتحرك متدثرة بوشاحها الترابي العازل .

و في كل الزوايا .. تتموضع شموع كثيرة .. سأشعل إحداها في هذا المحراب على نية إيابٍ لما غاب من صدى الروح .

هنا، هناك، وفي كل الأزمنة .. سأقرأ من كتاب الصبر آية الصمت ..

أن : "على الطرف الآخر من الحزن .... ثمة لا أحد.....

..... ثمة حزنٌ آخر ".